« داود باشا »

ونهاية دولة المماليك في العراق

١٨١٧ ـ ١٨٣١

١٢٣٢ ـ ١٢٤٦

الدكتور يوسف عزالدين
المدرس فى قسم اللغة العربية

طالت غيبة الطفل المترف المدلل عن اهله « وطال هلع امه ونحيبها ولكن اين داود ؟ الكرجى الجميل ..... الصبوح المشرق وهو الذى لم يتجاوز من العمر الثانية عشرة ؟! كان بين يدى سارقيه يحاول التخلص بكل ما اوتى من قوة الطفولة وعرامها ..... يدفعه الهلع ..... ويحرقه الحنين الى اهله واسرته والخوف من المجهول ... فهو لا يعرف ما يريدونه من سرقتهم له ، والى اين سيقر قراره .[1]

ولو ان عالم الغيب انكشف له فى تلك الساعة « وعلم انه سيكون واليا على العراق بأجمعه ..... لظن ذلك اوهاما ... واعتقد انها خدعة يريدها له السارقون .....

اوصلوه الى بغداد اسيرا[2] ... وكانت بغداد بحاجة الى المماليك لكى تربيهم وتدربهم « وتثقهم وتنتفع بهم » وكان الولاة حريصين على تكوينهم لانهم سيكونون الصق بهم وسيكون مستقبل الواحد منهم مرتبطا بمستقبلهم لذلك سيخلصون لهم ويتفانون فى خدمتهم ورضائهم .

بيع داود فى اسواق العراق وانتقل من يد الى اخرى وقابل مختلف الناس والعناصر وفيهم الرفيق اللطيف والخشن الفظ حتى وصل به المطاف

---

(١) تذكرة الشعراء ص ٥ ، ٢٢ ولونكريك ص ٢٣٩ .
(٢) خلاصة تأريخ العراق ـ للكرملى ص ٢٠٦ .

الى سليمان باشا الكبير (٣) فاذا بهذا الطفل المسيحى يعيش فى بيئة اسلامية « ويرى الجموع تصوم وتصلى وتؤدى الفرائض » فابتعد عن الكنيسة وعن اجراسها ولم يبعث فى نفسه اصواتها الا ظلالا من الذكريات تعنف احيانا ولكنها اخذت تهفت وتتضاءل اذ لم يذهب اليها ليؤدى القداس ولم يقم بشعائر الصلاة فيها واستبدل بها ، الجامع وصوت المؤذن الذى ينادى الله أكبر ..... وان محمداً رسول الله ..... فعند ذلك اطمأن قلبه الى الاسلام .

عرف داود الحياة وتمرس بافاتها صغيرا « وتعلم ما لم يتعلمه امثاله من الشباب وقد اخذ سيد البلاد يعنى به العناية الطيبة ويوجهه التوجيه الكريم » ولا يدخر وسعا فى تعليمه وتثقيفه . وكانت مرارة البيع والشراء « والتقلب بين أيدى الناس تزيد فى حماسة هذا الفتى الذكى يؤازرها حماسة الشباب والغربة وذلة الاسر(٤) فهو رفيق ملك سيده وهو عبد أقل مستوى من الاحرار فيجب ان يرفع من قيمته فى هذا المجتمع الذى انزله الى هذه الدرجات وليبرهن لهم انه اعلى منزلة من غيره من المماليك كان امامه سبيل العلم واضحا موطدا ومهيع الادب والفضل لاحبا فلم يتزود منه ولا يرتوى من هذا النمير العذب الزلال ؟! فانكب داود بهمة ونشاط على دروسه فدرس اللغة العربية والفقه والاصولين (الفقه والدين) كما اجاد القرآن الكريم اجادة تامة وحفظ من آياته البينات ثم ألم بالتصوف ودرس البيان والبديع وعلم التفسير وكل العلوم التى كانت تدرس آنذاك للطلاب(٥) .

فكان الطالب المبرز واصبح العلم الذى يشار اليه بالبنان . ثم اجاد اللغتين الفارسية والتركية فقد كان اديبا باللغات الثلاث . كان داود يدرج فى مراقى العلم بين اخوانه يدربه مدرب خصص له سيده على استعمال السيف « فكان الفارس البطل » .

---

(٣) لونكريك « تذكرة الشعراء » مطالع السعود ومختصره .

(٤) خلاصة تأريخ العراق ص ٢٠٦ وتذكرة الشعراء .

(٥) مطالع السعود ومختصره ولغة العرب ٢/١٢ .

كل هذا وسيده يرقبه عن كثب ويعجب به اشد الاعجاب فأزدادت ثقة سليمان باشا الكبير به « وحرصه على راحته » هذه الثقة جعلت من داود امينا لمفاتيح الوالى « ثم حاملا لاختامه » .

وكانت العيون ترمقه شزرا « وتنفث قلوب الحاقدين كمدا وحزنا لما اصابه هذا المملوك من العطف السامى الذى حباه به سليمان . والذى كان يكافىء النبوغ والعبقرية فزاد فى النفوس غيظها وكمدها .

ثم اصبح الناس حيارى من هول ما سمعوا : « ان سليمان باشا يزوج ابنته لداود ، السيد الجبار حاكم بغداد يزوج ابنته لعبد من عبيده ولكنهم لو فتشوا فى دخائل سليمان لوجدوه يعيد امامه تأريخ حياته ، الم يكن مثله رقيقا يباع ويشترى « فلماذا لا يسبغ على داود عطفه ولماذا لم يذقه من الحنان والعطف والرضا » بعد ان نسى الحنان بين اسرته .... واخوانه واصحابه فما عاد يذكر للحنان واللطف الا الذكريات .

وما بال القوم يهذرون الم يأمر الدين الاسلامى الكريم بمعاملة الارقاء معاملة حسنة ويأمر بالتحدث اليهم بالحديث اللطيف ليجبر تلك النفوس الكسيرة فكم من مرة امر الرسول العظيم وحث على مواساتهم والحدب عليهم واستنزل اللعنات على من يضرب عبده ؟!

ثم ألم يكن سليمان (اغا) متزوجا بأبنة سيده أحمد باشا ثم غدا بعدها (باشا) وهو اول من رسخ عهد المماليك فى العراق عام ١٧٥٠ م فلماذا يتقول الناس ؟ لا شك انهم قد نسوا ذلك الحديث لبعد الايام وتوالى السنين. اخذ داود باشا يعتلى المناصب حتى صار (دفتردارا) وكان هذا المنصب لا يعهد الا لذوى الكفاية والدراية والعقل الكبير من الناس . لان الدولة كانت تعيش للمال وتحيا به وليس لسوى المال من حياة هذا فى زمن عبدالله التوتونجى وعندما تسلم سعيد بن سليمان باشا الحكم رفعه الى درجة (الكتخدا) وقد كان داود يرفع من سمعته يوما بعد يوم . فلم ينزل كغيره الى قبول الهدايا والرشاوى وهو فى غنى عنها يصده العلم والادب والتجارب

القاسية المرة • ثم فكر فيمن يسانده ويعتمد عليه فى المستقبل لذا عامل الجيش معاملة حسنة فكسبه ثم ان داود كان دائم الابتسام بشوشا فى سلوكه غير متصنع فى معاملاته كما كانت ظرافته تستعبد اشد مناوئيه وتجذبهم اليه(٦) كل ذلك لكى يعد نفسه لليوم الكبير ويهيىء الجو لكى يتسنم عرش بغداد ويهز صولجانها بيده وقد كان يجتمع فى نادية الناس • وكان هذا النادى ملتقى الطبقات المثقفة والبارزة وكانت تخرج منه فتكيل الحمد له والثناء على اخلاقه وكرمه • مشيدة بفضله • هذه النفس الذى اسرت قلوب الناس • واستولت على نفس سعيد صهره وابن سيده » فقد كان يحمل لداود ذكريات الطفولة وكان يرى والده برا به » عطوفا فى معاملته « وكان الطفل سعيد يهرع الى داود يسأله دروسه فكان يبذل قصارى جهده فى توجيهه فيزداد اعجابا بالعلم الوفير والوقار والهيبة التى يلمسها فى داود •

ولما تبوأ سعيد باشا اريكة الحكم عين داود كتخداه « واطلق يده فى شؤون الدولة • لكن الشقاق العائلى وسوء التفاهم كثيرا ما يدب بين النساء « فأخذت أم سعيد تهاجم داود بعنف » حتى انها قالت لسعيد باشا (ان هذا واشباهه اعدائى منذ عهد عهيد)(٧) وقد حاول سعيد استرضاءها بطرق متنوعة تارة بالتذلل وآونة بالخضوع ثم اخذ يضرب على الوتر الحساس الذى تحسه المرأة وقال له (انه صهرنا المكرم الذى قدمه ابى واختاره الى مصاهرته)(٨) ولكن ضعف الرأى وسيطرة المرأة تغلبا على سعيد باشا رغم حاجاته الماسة اليه ورغم ان عزله سوف يؤدى الى رد فعل كبير بين الناس ويعزف القلوب عن مؤازرته •

نحن لا نلوم سعيدا على عمله فقد كان تحت رعاية أمه حتى ذلك العمر ولم يكن يتجاوز الثانية والعشرين فقد بقى تأثيرها عليه حتى هذه السن كبيرا ثم لم يكن مستقلا فى رأيه وعمله عنها « وقد كان ضعيفا لذلك استسلم الى أم

---

(٦) مختصر مطالع السعود ص ١٢١ •

(٧) الكولمن ص ٢٤ •

(٨) نفس المصدر •

جاهلة ومجنونة[٩] وعزل ركنا من أركان المملكة من منصبه ثم ان سعيد باشا كان محبا للانس والطرب » ومفرط العشق للنساء[١٠] زد على انه كان ضعيفا « لا يتقيد بالعرف وقد خضع لتأثير امه خضوعا مهينا • وقد اوغرت صدر سعيد باشا بعداء داود وكان حولها جماعة لا تريد النبوغ ان يبرز والسجايا العالية ان تظهر ، فأوهموه ان القصد الاول لداود قتله والاستيلاء على دست الولاية • وخوفوه مغبة الامر • خاصة ان الجيش تأثر بأمر داود وانه يحبه حبا جما ويخضع له راضيا شاكرا له كريم عنايته • ثم جسموا تلك الفكرة فى رأسه واخبروه انه سوف يأمر بخنقه ليلا واكدوا القول فى ذهنه بالتكرار المتواصل •

والحكم والنفس عزيزان على المرء لذا اخذ يفكر فيما يصنع بداود فكان مشيروه اسرع منه اجابة قائلين له (تغد به قبل ان يتعشى بك) ورتبت خطة لقتل داود[١١] فلما علم داود بذلك خرج من بغداد بحجة الصيد[١٢] والقنص ولكنه فر هاربا من بغداد لكى ينعزل فى احد الجبال المحصنة وتبعه اعوانه وبعض المتبرمين والناقمين على سوء معاملة سعيد باشا حتى وصل كركوك فرحب به محمود باشا ترحيبا حارا لمكانته وشهرته[١٣] وفى كركوك كان داود يجلس الساعات الطويلة مطرقا مفكرا معتزلا الناس اذ كان يودع ما تعلمه من جمال التعبير وقوة الافصاح والاقناع فى رسالة بعث بها الى السلطان يخبره بالمصير السيىء الذى وصلت اليه حالة البلاد فى العراق •[١٣]

لا شك فى ان الرسالة كانت معقد آماله ففيها حياته ومماته اما ان ترفعه الى الذروة او ان تنزله الى اللحد وقد كان داود يعد عدته لهذا اليوم الرهيب

---

(٩) لونكريك ص ٢٣٤ •
(١٠) الرافدان ص ٢٥٠ •
(١١) مختصر مطالع السعود ص ١٢٤ •
(١٢) الكولمن ص ٢٥ •
(١٣) مختصر مطالع السعود ص ١٢٤ والكولمن ٢٥ و٢٦ •

منذ عشرين سنة وقد عرف عنه فى الاستانة الشيء الكثير من مزاياه العالية وعلمه الوافر ، وعن مقدرته ، وعن عقله وفضله • ثم ان داود أخبر صديقه فى الاستانة « حالت » افندى بأدق الامور واعمق الاسرار وهناك بذل حالت افندى الجهد اليسير فى توجيه الاياله لداود • وقد كان داود ينتظر ورود الفرمان على احر من الجمر ساهرا لا يغمض له جفن اما بغداد فبقيت بعد داود باشا بيد سعيد وامه المجنونة وجماعة آخرين لا قيمة لهم فى معايير التجارب والعقل فتفشت الفوضى بين الناس وانتشرت اللصوصية دون ان تفكر الحكومة فى الضرب على ايديهم بل ان بعض الناس كانوا يشجعون اللصوص لكى يستفيدوا من الاسلاب(١٤) ثم ان نفقات سعيد على ملاذه الشخصية ولياليه ومرحه اعادت للذهن عهد العباسيين(١٥) وعندما كان يعوزه المال كان يستدين من عامة الشعب على ان يسدد ذلك من واردات الكمارك • وبينما كان سعيد باشا ساهرا فى لذاته ونسائه كان داود باشا ساهرا مثله ولكن فى سبيل مثل اعلى ، وفى غاية ارفع هى الاستيلاء على بغداد • فقد وصلت اليه السعادة وشمله الحبور بعزل سعيد باشا وتعينه بيلربكى(١٦) لبغداد والبصرة وشهرزور واراد داود ان يفت فى عضد سعيد فأرسل صورة الفرمان الى حمود بن ثامر رئيس قبائل المنتفك لانه كان يساند سعيدا(١٧) ففت فى عضد سعيد بأنسحاب القبائل الموالية له • فما كان من حمود الا ان ارسل الى سعيد باشا ينصحه بعدم القتال وتسليم بغداد لصاحبها الشرعى •

وقد كان تعيين داود نازلة نزلت على سعيد باشا فأخذ يستنجد بقوات متعددة غير ان خواء الخزينة حال دون ما يريد اذ لم يبق فى بيت المال شيء من الدراهم لكثرة ما انفقه على ملذاته حتى انه لم يتمكن ان يدفع للجند رواتبهم• ثم اخذ بعض المماليك يهربون الى داود عندما اخذت الحالة تسوء يوما بعد

---

(١٤) لونكريك ص ٢٣٥ •
(١٥) الرافدان ص ٢٥٠ •
(١٦) امير اللواء •
(١٧) مختصر مطالع السعود ص ١٢٥ •

يوم وقد بدأت فعلا ثورة علنية فى بغداد فى محلة باب الشيخ فسهل ذلك الامر لداود فدخل بغداد واخذ الناس يتوافدون عليه مرحبين به •

اما سعيد باشا فقد تحصن مع بعض القوات داخل القلعة فما كان من قوات داود الا ان تبعته وقطع رأسه وهو بين حضن امه ببلطة وابقت القوات الجثة بين يدى امه وقد ساء قتل سعيد باشا (داود) اذ لم يكن يريد ان يقضى على ابن سيده وصهره • وبذلك قضى على عهد سعيد وبقيت امه تنوح على ايامها وعلى ولدها • ولكن ليس لها مساعد ولا معين فقد انفض من حولها الناس •

صهرت التجارب داود وعركته المحن ، فامتحن فيها الايام فقد تولى ولاية بغداد وهو فى الخمسين من عمره وكان يعرفه اهل بغداد جيدا بالمزايا الحسنة والخلال الرفيعة والعلم والفضل • وعندما تسلم زمام الامر وجد الخزينة خواء فقد انفقها سعيد باشا وحتى ذلك الوقت لم يكن الجيش قد تسلم راتبه زد على ذلك ما كانت تعانيه بغداد من الفوضى والاضطراب فقد كانت القبائل ، كما نعهدها ، تهاجم بعضها بعضها ، واذا لم تقاتل فهى تهاجم المدن للاستيلاء على شىء من اموالها • هذه المشكلة من المشكلات التى كانت مستعصية على الحكومة فقد كانت تهدف الى جعلهم مواطنين صالحين للدولة • ولكنها كانت تستعمل القوة والضغط دون ان تفكر فى طرق ناجحة فى استيطانهم بل لم تفكر فى بذل بعض مثل هذا المجهود •

ولا ادرى كيف تخضع القبائل للدولة وهى تطالبهم بالضرائب المتوالية دون ان تقدم لهم فائدة محسوسة لقاء اخذ هذا الاتاوات وكانت الولاية كلما اعوزها المال تهاجم القبائل ومتى انتصرت عليها اجبرتها على دفع الضرائب ولم يكن داود الذى جرب هذه التجربة فى خلال بقائه فى العراق بالحائد عن هذه الطريقة وهو الآن احوج الناس الى المال لذا تراه عندما تلكأت الدليم[١٨] عن دفع الضريبة ارسل اليها الكتخذا بعسكره وغنم منها مالا بعد ان أستحر القتل بين المعسكرين وكأنها الحرب بين دولتين متعاديتين • وبالرغم

---

(١٨) مختصر مطالع السعود ص ١٣٨ •

من ان العشيرة عاهدت الكتخدا على الطاعة لكنه أستوفى من المواشى والابل والخيل[١٩] ما اراد ولم يكتف الكتخدا بذلك بل عامل عدة قبائل هذه المعاملة مثل بنى زوبع وجميلة وال عيسى حتى ادوا الضريبة المطلوبة منهم فطرب داود لهذا النصر وارسل الى قائده سيفا مكافأة على عمله .

ولم تكن الجيوش تكتفى بالهجوم على القبائل المتأخرة عن دفع الضرائب انما كانت تهاجم القبائل الاخرى فقد هاجم الكتخدا فى طريقه قبائل كانت حول بغداد فى منطقة الخالص ونهب منها اربعين رأس غنم وخرب البساتين فى (الخالص) و (خراسان) وان ساغ لكتخدا ان يهاجم القبائل العراقية بحجة عدم المحافظة على الامن او انها لم تقدم الضريبة المطلوبة منها فما حجته فى مهاجمة القبائل التى جاءت تأخذ الميرة كما صنع مع قبائل ابن هذال ؟![٢٠]

ومن المؤسف انه لم يكتف بمهاجمة القبائل بل كان يهاجم المحتجا بأنها خرجت عن الطاعة فقد هاجم (عفك) فتحصن الناس بالقلعة ولكنهم فروا ليلا خوف المدافع حين علموا انها ستطلق عليهم نهارا ولما عرف الكتخدا بذلك دخل المدينة ونهبها واستولى على الاموال والذخائر التى كانت فيها[٢١] .

لا شك ان قصد داود باشا كان ارهاب الناس واظهار قوته لكى يوطد الامن ثم يملأ الخزانة الفارغة الخاوية على عروشها بسرعة لكى يوطد حكمه وهو فى اول ايام ولايته .

مطامع داود :

كان داود يشعر بفساد حالة الدولة وها هو ذا يشهد استقلال الولايات لذلك كانت الآمال العذاب تداعب ذهنه فى ان يستقل هو فى بغداد ، كما

---

(١٩) مطالع السعود ص ٢٤٤ .
(٢٠) مختصر مطالع السعود ص ١٣٧ .
(٢١) المصدر السابق .

استقل محمدعلى باشا فى مصر فأعد العدة لهذا الاستقلال وكانت اولى هذه الدعائم هو الجيش ليكون درعه عند الملمات وساعة الشدائد ويجب ان يكون مدربا تدريبا عسكريا حديثا فعهد الى المسيو ديفو الفرنسى[٢٢] الذى كان من ضباط نابليون فى تدريبه بل ان ابن المقيم البريطانى الميجور تايلور كان بعهدته كتيبة من الخيالة وقد ارسل داود باشا الى الهند يطلب بعض المعدات لهذا الجيش ولكنها رفضت طلبه ، ثم طلب المساعدة بمقياس اكبر لتجهيز الجيش الذى اعده فقد اراد ضابطا ومدرسين وصناعا وثلاث سفن مسلحة كبيرة وكميات كبيرة من الذخائر الحربية ..... ولا شك فى ان الهند كانت تعتقد ان هذه الاسلحة سوف تستعمل فى اغراض العصيان وهى حريصة على علاقتها بالدولة العثمانية ولكن نظام الجيش قد ثبت(اذ استدعى (داود) صناعا من اوربا واحدث مصانع الجوخ والبن والبوارد[٢٣] واجتهد فى ترقية المصانع الوطنية والف جيشا نظاميا عدده عشرة آلاف بين مدفعية ورجالة[٢٤] فأخذ النظام الحديث يشتد ويقوى ثم اخذت الروح المعنوية للجيش ترتفع فقد انتظمت الامور واخذ الجند يتسلمون رواتبهم فى أوقاتهم المحدودة لها .

اصلاحات داود :

ومن كان يريد ان ينشىء دولة لابد من ان يفكر فى اصلاحها ويسبغ العدل عليها ويقرب قلوب الناس اليه لكى يلتفوا حوله فقد كان كما عرفنا عالما ذا فضل وادب فأخذ يتقرب الى الصوفية وارباب الطرق فدفع لزعيم الصوفية الشيخ خالد النقشبندى ثلاثين الف ليرة ذهبا عندما سمع انه مدين[٢٥] وقد كانت الطرق لها اهميتها وكيانها وسطوتها فأخذ المريدون يلهجون بالدعاء والثناء على داود باشا .

---

(٢٢) الكولمن ص ٢٩ ويسميه ثابت (دودة) .
(٢٣) البوارد جمع باوردة وهى البندقية .
(٢٤) الكولمن ص ٢٩ .
(٢٥) نيل المراد ص ٢٨٢ ومساجد بغداد والكولمن ص ٢٩ .

ثم اعتنى داود بعمارة بغداد واخذ يعمر المساجد والجوامع وامر بغرس الحدائق والبساتين ومن اشهر ما بناه الجامع المعروف بالمولى خانه وكان له مئذنتان ، وجامع الحيدرخانة وجامع باب المعظم المسمى بجامع الازبك ومسجد السيف والمسجد المحاذى للجسر من الجانب الغربى ولم يكتف بالبناء بل اخذ يجدد بعضها مثل جامع السادة فى الباب الشرقى وسوق المولى خانه وسوق الحيدرخانه والخان المتصل بباب الجسر المعروف بخان داود باشا[٢٦] ومخزن الاطعمة المعروف بالسيف ومن ذلك البستان الكائنة قرب الامام الاعظم ذات القصر الغريب الشكل ووقف بعض الاوقاف عليها[٢٧] .

وقد اعتنى داود باشا ببعض الاصلاحات العامة فاحتفر الانهار التى عفت ودرست فزادت فى مدة حكمه موارد البلاد .

العلم :

ومن ميزات داود انه تفرغ وقتا من اوقاته للعلم وخاصة فقد نشأ علمية وكان يحاول ان يوطد حكمه ويستقل بولايته كما استقل محمد على باشا فى مصر ، وللعلم والعلماء فى الحكومة اثر كبير ولاننسى ان داود تثقف على ايدى العلماء الكبار ومنهم صبغة الله الحيدرى فقد اجازه فى الاصوليين وتفسير البيضاوى[٢٨] كما اجازه زين الدين جمل الليل[٢٩] وقد قرأ القرآن على شيخ القراء محمد أمين الموصلى وقرأ النحو والصرف على الملا حسين بن محمدعلى ودرس التصوف على الحافظ احمد مدرس مدرسة السليمانية ودرس الرياضيات على لطف الله افندى[٣٠] .

ولم يكتف داود بالدراسة بل انه قد اجاز بعض التلاميذ مثل اسعد افندى الحيدرى[٣١] ومحمد البرزنجى الذى قرأ عليه جميع العلوم (وتخرج

(٢٦ و٢٧) الكولمن ص ٢٩ ومساجد بغداد الصفحات ٢٨ و٣٢ و١٢٥ و١٢٩ .

(٢٨) مختصر مطالع السعود ص ١٧٣ .

(٢٩) المصدر السابق تجد ترجمته فى ص ١٧٤ .

(٣٠) نفس المصدر ص ١٧٢ .

(٣١) مساجد بغداد ٣٦ ومجموعة تراجم العلماء ص ١٤ .

حتى صار هذا السيد من ارباب الكمالات المشار اليهم فى العراق[٣٢] ومحمد النائب وكان امين داود وكاتم سره وقد ارسله لمفاوضة العجم[٣٣] وقد كثرت المدارس فى عهده حتى انها بلغت ثمانية وعشرين معهدا كبيرا للتدريس واخذ يستجلب المدرسين من انحاء البلاد وجعل فى كل معهد مدرسا خاصا بذلك المعهد واسكنهم وجعل لهم جرايات ليعيشوا عليها من بيت المال العراقى[٣٤] .

وقد اعتنى داود كثيرا بالمساجد ولا سيما الجامع الذى انشأه وعدد فيه المدرسين والائمة والخدم وليؤثر من هذا الطريق فى الناس وبذلك يكون المدرسون اداة لدعاية له بين الطلاب فينشرها الطلاب بين اهلهم وذويهم .

اهم المعاهد التى عنى بها داود :

مدرسة داود باشا ومدرسة علي باشا والمدرسة العادلية ومدرسة الاعظمية والمدرسة الاحمدية والمدرسة السليمانية حتى بلغت عدد هذه المدارس ثمانى وعشرين مدرسة ثم تعهد اثنى عشر معهد اخر بين رباط ومرقد ولى[٣٥] وبالاضافة الى هذه المساجد والجوامع التى كانت فى الوقت عينه مدارس فقد عمر كثيرا من المساجد الاخرى كتعميره مسجد باب السيف الكائن فى الكرخ وجدد مسجد رأس الجسر ووسعه بعد ان كان ضيقا واقام فيه المحراب الذى كان منحرفا وعندما اشرف جامع الازبك على الانهدام تداركه وجدده ثم وسع فناءه وشاد فيه مئذنة صغيرة لا زالت قائمة الى هذا اليوم وهى مطلة على شارع الرشيد وقد نبغ فى عهده مدرسون كالسيد عبدالله الآلوسى ، وعبدالرحمن الروزبهانى وتلميذ داود باشا محمد البرزنجى ومحمود الآلوسى ومحمد سعيد السويدى وعثمان بن سند[٣٦] .

---

(٣٢) مختصر مطالع السعود ١٧٥ .
(٣٣) مختصر مطالع السعود ص ١٤٦ .
(٣٤) جريدة العرب ٨-١١-١٩١٧ .
(٣٥) مساجد بغداد ص ٣٦ .
(٣٦) نجد تراجم لهؤلاء فى مطالع السعود وفى تاريخ بعض المساجد والمسلك الاذفر وغرائب الاغتراب وعنوان المجد .

استقلال داود :

ولما رأى داود تردي حالة الدولة وما عليها من ضعف وهزال فكر فى الاستقلال وقد ساعده على تركيز هذه الفكرة طول مدة ولايته التى استمرت خمسة عشرة سنة نعم العراق فيه بشيء من الهدوء والدعه بالنسبة للولاة الماضين .

ولم تكن الدولة العثمانية غافلة عن تصرفات داود باشا ولكنها لم تتمكن من صنع شيء فقد شط المزار وهى فى حرب مع روسيا (وقد سئل داود باشا ان يعاون دولته في محاربة روسيا فأبى واخذ يبدى معاذيره ...)[٣٧] ولابد من ان داود باشا الذى يعد العدة للاستقلال خشى على جيشه ان يذهب دون رجعة او انه خشى ان يبقى وحده دون مساند يسانده فيما اذا ذهب الجيش الذى جهزه وصرف عليه الكثير من وقته وجهده فارتباب السلطان محمود واخذ ينظر اليه بعين كلها حذر وسخط وتمنى ان يستبدل به والياً آخر ولكنه خشى الملابسات وعدم نجاح هذه الفكرة .

تحفز السلطان :

ومما زاد فى قوة السلطان المعنوية قضاؤه على الينچرية[٣٨] قضاءا تاما وحصرهم فى الاستانة وبذلك استراح من عدو قوى كان يخشى ثورته وعناده . فأصدر اوامره الى جميع الولاة بالقضاء عليهم من كل ولاية . لكن دواد باشا الاريب تمكن بدهائه من انقاذهم من الموت وضمهم الى الجيش الجديد والغى تشكيلاتهم غير ان السلطان محمودا لم يرق له عمل داود واخذ يفكر فى كل الطرق للقضاء عليه واخيرا صمم ان يقضى عليه بحد السيف .

داود وايران :

كان ملوك فارس يطمعون دائما بالاستيلاء على العراق اذ فيه الاماكن

---

(٣٧) الكولمن ص ٢٩ و٣٠ .

(٣٨) شرح الالفاظ الرسمية الواردة هنا تجدها فى (الشعر العراقى فى القرن التاسع عشر) بغداد ١٩٣٨ .

المقدسة التى يزورها الايرانيون كل سنة لذلك فقد كانت الحرب سجالا بين الدولة التركية والدولة الايرانية .

ولا يغربن عن الباس أمر تلك الحملات التى قام بهـا الوهابيون على الاماكن المقدسة وانتهاب ما فيها من ذخائر نفيسة وهدم القبور والقبب التى كانت مقامه فوق اضرحة الائمة فى كربلاء كالامام الحسين والامام على ابن ابى طالب[٣٩] وقد تعددت هذه الحملات مما اقلق بال الدولتين التركية التى كانت تخشى ان تقوم حكومة عربية تزاحمها فى الهيمنة على الحجاز والدولة الايرانية التى كانت تتألم لما حدث للاماكن المقدسة وكانت كرمنشاه مجمع الناقمين على الحكم فى العراق وموئل اللاجئين من العراق . فوجد الفرس فى التجاء العراقيين سببا واحتجوا به وبسوء المعاملة التى كان يلاقيها الزوار الايرانيون الداخلون فى العراق لزيارة الاماكن المقدسة من حكومة بغداد التركية فى اعلان الحرب ضد الاتراك . فتقدم الجيش الايرانى حتى وصل الخالص وكان داود باشا قد استعد للامر واستأذن الدولة فى حرب العجم فلما ابطا على داود باشا الجواب جمع عسكره وحفظ بها سور بغداد واخذ الجيش الايرانى يتقدم نحو بغداد حتى وصل على بعد يوم واحد منها فأخذ الناس يهربون الى لحله وقد كان داود يجمع فى خزائنه الاموال الكثيرة وحشد مخازنه بالغلال خشية ان يستولى عليها الجيش الايرانى وفى خلال ذلك تفشت الكوليرا بالجيش الايرانى واصيب أمير الجيش فأضطر الى عقد صلح واخلى الجيش بعض الارض التركية عائد الى بلاده ولكن بقيت بعض المناطق تحت سيطرة ايران فوردت فرامين عدة ولاة لمساعدة والى بغداد وجعله رئيسا تلك العساكر وقد كان يساعد الجيش رئيس قبائل شمر جربا اذ اخذ فى اشغال الجيش الايرانى وكان ينتصر عليهم[٤٠] بين حين وآخر .

ثم اخذ الجيش التركى يتحرك نحو خراسان ولما سمع الفرس بذلك جهزوا جيشا كبيرا فأجبروا قائد الجيش التركى على الانسحاب غير ان القبائل

---

(٣٩) يراجع غرائب الاثر ٣٠٣ ومطالع السعود لابن سند .
(٤٠) مختصر مطالع السعود ١٤٢ ـ ١٤٨ ولونكريك .

له : (ما دام هذا الرجل فى قيد الحياة فليس لنا فى الحيـــاة نصيب)[٤٤] فأرسل اليه فى الليل جماعة احاطت البيت ودخل عليه مقدمهم وخنقه ولما سمع داود بموته ذهب وتأكد من ذلك بنفسه ثم كتب الى الدولة بأنه مات بالهيضة ، ولـكن مثل هذا الخبر وهذه الطريقة تشيع بين الناس فعلمت بها الاستانة ولم يكن يجهل داود بأن عمله سوف ينكشف لذلك أراد ارسال هدية للسلطان متكونة من عدد من الخيل عساه يعفو عن زلته التى قدمها نحو الدولة بقتل موفدها[٤٥] ولـكن الدولة لم تحتمل والفرصة سانحه فارسلت اليه والى حلب على رضا باشا على رأس قوة كبيرة من الجيش .

ضحكة الاقدار :

كانت جيوش على رضا باشا تتقدم نحو بغداد ومعه امر بعزل داود من ولاية بغداد وتوليته عليها وكان داود باشا يسخر من القادمين فقد اعد عدته لهذا اليوم وكان واثقا من جيشه الذى افرغ عليه جهده وماله ودرب التدريب الـكامل والمجهز بالمعدات الـكافية ولـكن الاقدار كانت تسخر من داود ومن تفكيره .

الطاعـــون :

فقد اخذ الطاعون يفتك بالناس فتكا ذريعا لا هوادة فيه ولا رحمـة واخذت اصابات الطاعون تزداد يوما بعد يوم كلما ازداد على رضا باشا قربا من بغداد حتى لم يبق من يـدفن الجثث التى كانت طريحة فى الطرقـات والازقة[٤٦] بعد ان عجزت المساجد عن استيعاب هذا العدد الـكبير فأخذت ترمى فى نهر دجلة تخلصا من الجيف والرائحة التى كانت تملأ بغداد حتى قدر احد الـكتاب[٤٧] عدد الموتى فى اليوم الواحد بعشرة آلاف اذ لم يبق من عساكر داود وحاشيته غير ٤٦ رجلا[٤٨] .

---

(٤٤) الـكولمن ٣١-٣٢-٣٣ .
(٤٥) الـكولمن ص ٣٥ .
(٤٦) نيل المراد ص ٢٨٢ .
(٤٧) الشواف فى فى حديقة الورود ورقة ١٣ ج١ .
(٤٨) الـكولمن ص ٣٧ .

الفيضـــان :

ولم تكن الطبيعة هذه المرة رحيمة بالعراق فقد ارعبت بغداد بالفيضان العالى واحاطت المدينة بالمياه وحرمت على الناس الهروب ثم اخذت السدود تتهاوى أمام ضربات المياه المتوالية فدخلت البلدة وأخذت البيوت تتساقط على من بقى من الناس حتى قـدرت البيوت المتهدمة بسـبعة آلاف بيت وهكذا اصبحت بغداد مقبرة للاحياء الذين كانوا يأملون الفرار من الطاعون ثـم اخذ البدو يدخلونها • والصعاليك والسراق يسرقون وينهبون ما يجدونه حتى كان بعضهم يعاجله الموت اثناء السرقة(٤٩) •

داود باشا :

اما داود باشا (فقد اضاع قواه واصبح عاجزا عن القيام والقعود فقد استولى عليه الطاعون وهاله ان يرى احلامه الحلوة ، وامانيه العذبة تذوى بين يوم وليلة واخذ يسمع بتقدم على رضا باشا حتى لم يبق معه من يساعده الا امرأة عجوز ويحصل طعامه من سماك كان يشفق عليه فقد اذن لجميع خدمه ان يغادروا بيته وبقى على رضا خارج بغداد • وطلب من داود الفرار الى المنتفك(٥٠) لكنه ابى ، ولماذا يفر وقد ضاع اجمل آماله واحلامه فقـد ركب اليأس قلبه والمرض جسمه • ومما زاد الامر يأسا احتراق السراى وقضاء النيران على كنوز داود واسلحته ومفروشاته •

محاولة فاشلة :

وقد عاد بعض المماليك الفارين من الطاعون عندما خفت وطأته وانخفض الماء ومعهم بعض اعوان داود باشا لـكى ينجدوا داود باشا ويمنعوا على رضا باشا من دخول بغداد • ثم تحصنوا بالمدينة وبعثوا الى الدولة عارضين عليها عشرة آلاف جنيه نظير بقاء داود فى الحـكم بل اوصلوا المبلغ الى عشـرين الف تدفع مرة واحدة وزادوا الجزية التى تدفع من بغداد الى الدولة من الف

---

(٤٩) الرافدان ص ٢٥٣ •
(٥٠) الـكولمن ص ٣٨ ولونكريك •

كيس عشرة آلاف كيس وتحملوا جميع مصاريف الحملة[٥١] .

ولم يكن على رضا يريد ان يزيد فى خراب المدينة التى لم يبق فيها الا قليل من العمران لانها ستكون عاصمة ملكه لذلك بقى خارج الاسوار. فأخذ البغداديون يدافعون دفاع الابطال عن بغداد حتى انهم جندوا (٥٠٠) جندى لقتال هذا الجيش اللجب الذى جاء به على رضا وكانت المدافع تحصدهم حصدا ثم ارسل السلطان رسالة الى على رضا يأمر فيها بأحسان التدبير فكانت الرسالة سببا فى فتح باب المفاوضة ودخول بغداد سلما[٥٢] .

اما داود فدخل الضباط عليه بتواضع واحترام واخذوه معهم الى خارج المدينة حيث نصبت خيمة له فنهض على باشا من مكانه عندما كان الركب بعيدا ثم قابل داود وهو اسير حقير بالاحترام الذى لم يقابل بمثله مملوك من قبل ولو كان فى اوج ابهته وعظمته ثم ارسل الى الاستانة ومعه توصية من على رضا باشا كانت سببا فى العفو عنه . ولما قابله السلطان ولاه البوسنه وفى زمن السلطان عبدالمجيد ولاه الحرم النبوى وتوفى فى المدينة[٥٣] .

المماليك الباقون :

دعا على رضا المماليك دعوة عامة فلبوا نداءه ولما اجتمعوا عنده دبر مكيدة لهم اذ خرج الجلادون عليهم واخضبوا بدمائهم بأقدامهم ولم يبق منهم باقية[٥٤] الا من فر وبذلك انقرضت دولة المماليك التى حكمت حوالى القرن فى العراق وقضى عليهم بنفس الطريقة التى قضى محمد على باشا على المماليك فى مصر وأصبحت ولاية العراق تابعة مباشرة الى الاستانة فانتصرت الاستانة على اعدائها واقواهم بأسا واشدهم مراسا .

---

(٥١) الكولمن ص ٤٤ وما بعدها .
(٥٢) الكولمن ٤٧ ـ ٤٩ .
(٥٣) مجموعة تراجم العلماء .
(٥٤) الكولمن ص ٥٠ .

المراجـــع

١ ـ المخطوطات

١ ـ مطالع السعود — عثمان ابن سند

٢ ـ تاريخ المماليك (الـكولمن) — سليمان فائق تعريب نجيب الارمنازى

٣ ـ مجموعة تراجم العلماء — محمود شكرى الآلوسى

٤ ـ عنوان المجد — ابراهيم فصيح الحيدرى

٥ ـ غاية المرام — ياسين العمرى

٦ ـ حديقة الورود — عبدالفتاح الشواف

٧ ـ نيل المراد — عباس السيد جواد البغدادى

٨ ـ العراق فى القرن التاسع عشر — يوسف عزالدين

٢ ـ المطبوعات

٩ ـ أربعة قرون من تاريخ العراق — لونكرك لندن ١٩٢٥

١٠ـ بغداد كوله‌من حكومتنك تشكيلنه‌دائر رسالة — « ثابت » ١٢٩٢

١١ـ تاريخ مساجد بغداد — محمود شكرى الآلوسى وتهذيب محمد بهجة الاثرى بغداد ١٣٤٦هـ

١٢ـ تذكرة الشعراء — عبدالقادر الحطيبى الشهرابانى بغداد ١٩٣٦

١٣ـ خلاصة تاريخ العراق — انستاس الـكرملى البصرة ١٩١٩

١٤ـ دائرة المعارف الاسلامية (باللغة الانكليزية) مقال للدكتور عبدالعزيز الدورى عن « بغداد »

١٥ـ دائرة المعارف الاسلامية (باللغة التركية) — استانبول ١٩٥٠

١٦ـ الرافدان — ترجمة طه باقر وبشير فرنسيس بغداد

١٧ـ الشعر العراقى فى القرن التاسع عشر — يوسف عزالدين بغداد ١٩٥٨

١٨ـ الشعر العراقى الحديث — يوسف عزالدين بغداد ١٩٦٠

١٩ـ غرائب الاثر — ياسين العمرى نشره الدكتور محمد صديق الجليلى الموصل ١٩٤٠

٢٠ـ غرائب الاغتراب — ابو الثناء الآلوسى بغداد ١٣٢٧هـ

٢١ـ لغة العرب (مجلة) — انستاس الـكرملى

٢٢ـ مختصر مطالع السعود — حسن الحلوانى مصر ١٣٧١

٢٣ـ المسك الاذفر — محمود شكرى الآلوسى بغداد ١٩٣٠

حدود النقد الادبى (١)

ت.س اليوت

ترجمة عبدالوهاب الوكيل

ينص مضمون هذه المقالة على وجود حدود للنقد الادبى اذا ما اجتزناها فى ناحية انتفت صفة الادب عنه ، واذا ما تعديناها فى ناحية أخرى لم يعد نقـــدا .

كنت قد نشرت فى عام ١٩٢٣ مقـالا بعنوان [وظيفة النقد] ولابد وأنى كنت قد أستحسنت هذه المقـالة لانى ضممتها بعد عشر سنوات الى كتابى [مقالات مختارة] حيث يمكن الرجوع اليها الان .

وعندما راجعتهـا مؤخرا أصبت بشىء من الحيرة وصرت أعجب من سبب الضجة التى افتعلتها فيها رغم أنى لم أجد فيها ما يتناقض كليا وآرائى فى الوقت الحاضر ، ذلك لان الظروف التى أدت الى ذلك الانفجار قد انمحت من ذاكرتى باستثناء المشادة مع السيد [مدلتن مرى] حول [الداعى الخفى] وهو خلاف نستطيع أن نتلمس فيه بعض آثار النزاع القديم بين السـلطة والاحكام الفردية ، فلقد أدليت فيها بعدد من التصريحات بلهجة التأكيد وبحرارة زائدة ولابد وأنى بدوت وكأنى أعنى ناقدا معينا ، أو أكثر ، من النقاد المشهورين الذين كانوا يكبرونى منزلة والذين لم تتوفر فى كتاباتهم متطلبات النقد الادبى التى كنت أؤمن بضرورتها ولـكنى عاجز عن تذكر كتاب أو مقالة واحدة ، أو حتى اسم ناقد معين كمثل على ذلك النوع من النقد الانطباعى الذى أثار استيائى قبل ثلاثة وثلاثين عاما .

---

(١) من مقالة فى الشعر والشعراء ، نشرت عام ١٩٥٧ .

ان السبب الوحيد الذى حدا بى الى ذكر هذه المقالة هو التنبيه على مدى ارتباط ما ذكرت حول هذا الموضوع فى عام ١٩٢٣ بالزمن الذى كتبت فيه فلقد تم نشر كتاب [رتجارتز] (Richards) [قواعد النقد الادبى] عام ١٩٢٥ وحصل الشىء الكثير فى ميدان النقد الادبى منذ ظهور هذا الكتاب البعيد الاثر حتى الان ، بينما كانت مقالتى قد كتبت قبل صدوره بعامين • لقد تطور النقد خلال هذه المدة وتفرع فى نواحى عديدة وأخذ الناس يرددون عبارة [النقد الحديث] دون ادراك لما تتضمنه من معان متفاوتة ، بيد ان تداولها كما أعتقد يؤكد الاعتراف بأن نقاد العصر الحاضر البارزين يختلفون كلهم فى ناحية مهمة ، عن نقاد الجيل الغابر رغم تباينهم العظيم فيما بينهم • ولقد قلت قبل أعوام ان الضرورة تحتم على كل جيل من الاجيال وضع قواعد خاصة به فى النقد الادبى وذلك لانه كما ذكرت آنذاك [ان كل جيل يأتى بمقاييسه الخاصة فى التثمين الادبى الى ميدان التأمل الفنى ويفرض شروطه على الفن ويسخدمه فى مجالاته المفضلة •] اننى واثق بأنى عندما ذكرت هذه الفكرة كنت أعنى بها أشياء أكثر من مجرد التغيرات التى تطرأ على الذوق والازياء فكنت أقصد بها على الاقل الحقيقة القائلة بأن كل جيل عندما يتأمل غرر الانتاج الفنى للاجيال السابقة من زاوية مغايرة تتأثر نظرته فى نواحى عديدة أكثر من النواحى التى أثرت فى الجيل السابق ، بيد انى أشك فى أن ماكنت أعنيه هو أن أى تأليف رائع فى النقد الادبى يستطيع تغيير وتوسيع مفهوم اصطلاح [النقد الادبى] نفسه •

لقد سبق أن نبهت الاذهان قبل بضع سنوات الى التبدل المستمر الذى أخذ يطرأ على مفهوم كلمة « التربية » منذ القرن السادس عشر حتى العصر الحاضر ، وهو تغير حصل فعلا لان التربية لم تتضمن زيادة فى الموضوعات فحسب ، بل لانها وضعت تحت تصرف ، [أو فرضت] على أكبر عدد من السكان فاذا ما تتبعنا تطور اصطلاح [النقد الادبى] بنفس الصورة وجدنا أن شيئا مماثلا قد حدث ، فلو قارنا مثلا بين أحد الكتب المهمة فى النقد

الادبى ككتاب « جونسون » [حياة الشعراء] بالمؤلف المهم الذى تلاه فى النقد الادبى [السير الادبية] لـ [كولرج] لوجدنا أن الاختلاف بين المؤلفين ليس قائما على كون [جونسون] يمثل عرفا ادبيا معينا جاء هو فى نهايته ، بينما يدافع [كولرج] عن مزايا اسلوب جديد وينتقد مساوءه فحسب ، بل ان الاختلاف الذى يتفق وما ذكرت الآن يعزى الى ما يثيره [كولرج] فى بحثه عن الشعر فينا من اهتمام بعيد المدى ومتنوع الالوان • فلقد اسس العلاقة بين الفلسفة وفلسفة الفنون الجميلة(Aesthetics) من جهة ، وعلم النفس من جهة اخرى ، وما ان ادخل هذه القواعد الى حقل النقد الادبى حتى تعذر على النقاد الذين جاءوا بعده تجاهلها دون ان يتعرضوا لمخاطر عظيمة ولكى نتمكن من تثمين « جونسون » ينبغى علينا ان نبذل جهدا عظيما فى الخيال التاريخى ، بينما يجد الناقد المعاصر نقاط شبه كثيرة بينه وبين [كولرج] ، ويمكننا الجزم بان النقد الحديث كان فى الحقيقة قد انحدر مباشرة من كولرج ، ولو ان كولرج كان حيا اليوم لكان ، كما اعتقد ، بذل نفس العناية بالعلوم الاجتماعية وبدراسة اللغة ومشتقاتها كتلك التى بذلها فى دراسة العلوم التى كانت فى متناوله •

ان البحث فى الادب فى ضوء دراسة أو أكثر من هذه الدراسات يكون عاملا واحدا فقط من العاملين اللذين ساهما فى تغيير النقد الادبى فى عصرنا هذا ، اما العامل الآخر فلم يتم التعرف عليه بصورة كاملة بعد فالعناية المتزايدة التى تبذل فى دراسة الادب الانكليزى والامريكى فى جامعاتنا ومدارسنا قد ادت الى وضع أصبح فيه كثير من النقاد مدرسين وكثير من المدرسين نقادا • ولست بآسف على هذا الوضع مطلقا اذ أن ادباء كانوا قد شقوا طريقهم الى جامعاتنا ومن بُحاث تم اختبار نشاطهم فى ادباء كانوا قد شقوا طريقهم الى جامعاتنا ومن بُحاث تم اختبار نشاطهم فى النقد لاول مرة فى غرف الدرس • واليوم وبعد ان اصبحت الصحافة الادبية الجدية وسيلة معاشية غير ناجحة وحافلة بالمخاطر لجميع من يتعاطونها ، الا النزر القليل منهم ، فان هذه الظاهرة هى السائدة غير انها تعنى ان للناقد اليوم صلة بالعالم تختلف نوعا ما عن صلة النقاد فى الازمنة الغابرة وانه

يكتب لقراء يختلفون عن اسلافهم • ان عندى ثمة انطباع يشير الى ان النقد الجدى يكتب الآن لطبقة ضيقة ولـكنها ليست اضيق بالضرورة من طبقة القراء فى القرن التاسع عشر •

ولقد ادهشتنى قبل وقت ليس بالبعيد ملاحظة قدمها السيد [الدس هاكسلى] فى مقدمته للترجمة الانكليزية فى كتاب [الحـكمة العظيمة] وهو كتاب قام بتأليفه المحلل النفسانى الـكبير الدكتور [هيوبرت بنوار] حول نفسية [زن] البوذية ، فلقد جاءت ملاحظة السيد هكسلى موافقة للانطباع الذى تكون عندى على اثر قراءتى لذلك الـكتاب العظيم اذ يقارن هكسلى بين التحليل النفسى الغربى وبين الطريقة الشرقية فى ضبط النفس كما فى مبدأ [تاو] و [زن] فيقول :ـ

[ان الهدف فى التحليل النفسـى الغربى هو مسـاعدة الشخص المضطرب على تكييف نفسه للحياة فى مجتمع مؤلف من اشخاص اقل اضطرابا ـ اشخاص يبدو عليهم حسن تكييف بعضهم للعيش مع البعض الآخر فى ظل المؤسسات المحلية ، ولـكن تكييفهم للنظام الاساسى للاشياء ليس موضع تحرٍ أو استقصاء •• بيد أن هنـاك نوعا آخر من السـلوك الاعتيادى وهو الاداء التام للوظائف •• فحتى الرجل الذى يعيش فى وئام تام فى مجتمع مضطرب يستطيع ان يهيء نفسه ان شاء للانسجام مع طبيعة الاشياء] •

ولا شك فى ان انطباق هذا القول على الموضوع الحالى غير واضح لاول وهلة ، ولـكن لما كان التحليل النفسى الغربى هو من وجهة نظر [زن] البوذية مرتبك وغير واضح فيما يتعلق بالغرض من الشفاء ، وان نظرته تحتاج الى توضيح بشكل عكسى ، لذا فانى اتسائل عما اذا كانت نقطة الضعف التى يشكو النقد الحديث منها هى عدم التأكد من الغرض الذى وجد النقد من اجله والفائدة التى يؤديها والجهة التى تعود عليهـا الفائدة وربما كان غنى النقد نفسه وتنوع اشكاله هو سبب غموض هذفه العام وقد يكون لـكل نقد هدف معين يهدف اليه أو قد يعنى بمهمه لا تحتاج

الى تدبير ومع ذلك تكون غاية النقد نفسه مجهولة فاذا كان الامر كذلك فهو ليس بالشيء الغريب ، وذلك لانه من المألوف اليوم ان نجد العلوم وحتى الدراسات الانسانية قد بلغت درجة من النمو والتطور تضاعفت فيها المعلومات المتعلقة بكل فرع من فروع الاختصاص حتى تعذر على طالب البحث الالمام باى شيء آخر • وقد اصبح البحث عن منهج يجمع بين الدراسة الاختصاصية والثقافة العامة من المشاكل التى كثر النقاش حولها فى جامعاتنا •

اننا بطبيعة الحال غير قادرين على الرجوع الى عالم ارسطو أو القديس [توماس اكوانيس] كما اننا لا نستطيع الرجوع الى الحالة التى كان عليها النقد الادبى قبل عهد [كولرج] ولكننا ربما تمكنا من القيام بعمل يوفر علينا شدة الانغمار فى خضم الفعاليات النقدية وذلك عن طريق توجيه هذا السؤال لانفسنا باستمرار الا وهو :ـ « متى تنتفي صفة الادب من النقد فيصبح شيئا آخر •• ؟ »

ان شيئا من الحيرة يتملكني احيانا وذلك عندما يصفنى البعض بأب النقد الحديث لان سنى المتقدمة لا تسمح لى بان اكون ناقدا حديثا ، وهكذا وجدت فى كتاب قرأته مؤخرا لكاتب لابد ان يكون ناقدا حديثا ، العبارة التالية ، [وانا لا اعنى النقاد الامريكان فقط بل اقصد حركة النقد باجمعها ، تلك الحركة التى انبعثت من ت•ر• اليوت] ولست افهم لماذا يفصلنى الكاتب تماما عن النقاد الامريكان فى الوقت الذى يتعذر علىّ ان اجد اية حركة فى النقد يمكننى ان اكون مصدرا لها ، ولو انى ارجو ان اكون قد ساهمت عندما كنت محررا صحفيا فى تشجيع النقد الحديث أو جزءاً منه وفى تهيئة الفرصة لممارسته فى مجلة [الكرايتبون] ولكنى ارى ان الواجب يحدونى الى تبرير هذا التواضع فاشير الى ما يمكن اعتباره مساهمة منى فى النقد الادبى ورسم حدوده •

ان احسن ما قدمته فى حقل النقد الادبى ـ باستثناء بعض العبارات ذات الصيت السيىء التى كان لها نجاحا محيرا فى العالم حقا ـ ينحصر فى مقالات تدور حول شعراء وكتاب مسرحيات شعرية كان لهم الاثر الكبير

في . وهذه عبارة عن نتاج عرضي لفعاليات خاصة اجريتها في ـ مختبرى ـ الشعرى أو امتداد للتفكير الذى بذلته فى نظم القصائد الشعرية العائدة لى • والآن عندما اتأملها اجد ان خير مؤلفاتى كانت عن الشعراء الذين اثر شعرهم فى انتاجى الشعرى والذين الفت اشعارهم تماما قبل ان افكر فى الكتابة عنهم او اجد الفرصة المناسبة لذلك بوقت طويل •

ان اساليب النقد عندى هى كأساليب [ازرا پاوند] من ناحية معينة وحتى انه ليس بالامكان تبين محاسنها وعيوبها الا عن طريق تحديد مقدار ارتباطها بالشعر الذى كتبته • فنقد الشاعر « باوند » يحتوى على دافع تعليمى اكبر والقارىء الذى كان يقصد اليه بشعره هو كما اظن الشاعر الشاب الذى لما يتكون له اسلوب ثابت ، بيد ان حبه لبعض الشعراء هو الذى اثر فيه وكذلك ادى امتداد تفكيره فى انتاجه الى ان يوحى اليه بوضع كتاب فى سن مبكرة يعد من خير ما ألفه الا وهو « روح الرومانس » ان لهذا النوع من النقد الشعرى للشاعر والذى سميته [نقد المبتدئين] عيبا واحدا • فجميع ما لا يمت الى عمل الشاعر بصلة أو كان على النقيض منه فهو خارج طاقته الفنية ، وعيب آخر من عيوب [نقد المبتدئين] هذا هو ان احكام الناقد قد لا تكون صائبة خارج حدود فنه • فقد بقى تثمينى للشعراء ثابتا تقريبا طول طياتى كما بقيت ارائى حول جماعة من الشعراء المعاصرين كما كانت دون تغير وعليه فهو ليس بالسبب الوحيد الذى حدا بى الى الكلام عن النقد الشعرى فى بحثى هذا عن النقد ، فالشعر فى الحقيقة هو الموضوع الذى كان يبحثه اغلب النقاد فى الماضى عندما كانوا يصدرون الاحكام العامة فى الادب • ان نقد الادب النثرى هو حديث النشأة نسبيا وليست لى المؤهلات الكافية التى تمكننى من بحثه ولكن يبدو لى انه يحتاج الى مجموعة من الاوزان والمقاييس التى تختلف عما يحتاجه الشعر وربما استمد منه ناقد النقد [وهو من لم يكن شاعرا ولا روائيا] مادة لموضوع طريف يبحث فيه الفروق الفردية بين الاساليب التى ينبغى على الناقد اتباعها فى بحثه عن الموضوعات الادبية وبين انواع الوسائل التى يحتاج اليها ، بيد ان الشعر هو اسهل اداة للنقد يمكن ان نذكرها عند

الكلام عن النقد ، وما ذلك الا لسهولة خضوع صفاته الظاهرية للتعميم فقد يبدو الاسلوب فى الشعر هو الكل وهو شىء بعيد جدا عن الحقيقة ، ولكن الاعتقاد الخاطىء الذى يقول باننا فى الشعر نكون فى تماس اكبر مع التجربة الفنية الخالصة يجعل الشعر عند البحث عن النقد الادبى نفسه من أكثر الالوان الادبية فائدة وسهولة فى التذكر .

ان الكثير من النقد المعاصر الذى وضع بعد تحول النقد الى دراسة علمية والدراسة العلمية الى نقد يمكن وصفه بانه [نقد التفسير] وهو الرجوع الى مصادر القصيدة ولكى اوضح ما اقصد بذلك سوف اذكر كتابين كان لهما فى هذا الخصوص اثر سىء ، ولست اعنى انهما كتابان رديئان بل العكس ، فهما كتابان ينبغى للجميع التعرف عليهما فالاول هو كتاب [كون لفنكستون لوس] وعنوانه [الطريق الى كسنادو] وهو كتاب انصح جميع طلاب الشعر بقراءته ، والكتاب الآخر هو [فنكنس ويك] وهو كتاب احبذ قراءة بعض اجزائه على الاقل . فقد كان [لفنكستون لوس] بحاثا ممتازا ومدرسا ناجحا وانسانا محبوبا ورجلا يدين له بعض الناس – وانا منهم – بالكثير ، اما جيمس جويس فقد كان رجلا عبقريا وصديقا شخصيا لى ولكن ذكرى لـ [فنكنس ديك] هنا لم يكن فى معرض المدح ولا الذم بهذا الكتاب الذى هو فى الحقيقة فى مصاف الكتب الخالدة ، بيد ان الصفة الوحيدة المشتركة التى نجدها فى هذين الكتابين هى اننا نستطيع ان نقول عن كل واحد منهما :– كتاب واحد كهذا يفى بالغرض المطلوب .

وسوف اقول لاولئك الافراد الذين لم يقرأوا [الطريق الى كنسادو] موضحا انه قطعة مدهشة من قوة الملاحظة والاكتشاف فلقد كشف [لوس] عن جميع الكتب التى قرأها [كولرج] [وكان كولرج يلتهم جميع انواع الكتب بشراهة لا حد لاشباعها] والتى استعار منها صورا وعباراتا يمكن ان نجدها فى [كوبلا كان] و [البحار العجوز] . ان معظم الكتب التى قرأها كولرج غامضة عفى عليها النسيان ، فلقد قرأ مثلا جميع الرحلات

التى كانت فى متناول يده ، وقد بين [لوس] للمرة الاولى والاخيرة ان الاصالة الشعرية هى على العموم طريقة فريدة لجمع اكثر المواد اختلافا وتناقضا وتكوين كل جديد منها ، وشرحه هذا فى غاية الاقناع كما انه دليل على كيفية هضم المواد المختلفة وتحويلها بواسطة العبقرية الشعرية الى مادة جديدة ، اذ لا يستطيع احد بعد الانتهاء من قراءة هذا الكتاب ان يزعم انه صار يفهم [البحار العجوز] بصورة دقيقة ، كما ان غرض الدكتور لوس لم يكن ابداً تقديم شرح لمعانى القصيدة ، فقد كان منهمكا فى بحث عن اسلوب العمل وهو موضوع يقع خارج حدود النقد الادبى تماما • ان كيفية استحالة مثل هذه المواد الناتجة عن قراءة كولرج المتباينة الى شعر رائع لم تزل كما كانت كغزا كبيرا ، ومع ذلك يعتقد بعض الباحثين المتفائلين بان طريقة لوس هذه تمدنا بمفتاح يسهل علينا فتح مغالق أى قصيدة لاى شاعر يبدو عليه انه قرأ شيئا ما •• ولقد كتب لى رجل محترم من [انديانا] قبل سنة أو أكثر يقول : [انى لا عجب ان كانت هناك علاقة ـ طبعا قد اكون مجنونا ـ (وهذه عبارته هو وليست عبارتى وليس الرجل مجنونا فقط بل به مس قليل فى زاوية من عقله اصيب به من جراء قراءته « طريق كزنادو ») انى لا عجب ما اذا كان ثمة علاقة ما بين (قطط الحضارة الميتة) و (الكركدن المتفسخ) وبين (ذلك الجدث الذى زرعته السنة الماضية فى حديقتك ؟] لاشك ان هذه العبارة تبدو كالهذيان ما لم نتمكن من التعرف على مصادرها اذ أنها صادرة من باحث جاد فى محاولته لتقرير العلاقة بين [الارض الخراب] وكتاب [قلب الظلام] لجوزيف كونراد •

وبينما الهب الدكتور لوس نفوس اولئك الذين يمارسون التفسير بحماس منقطع النظير ، امدهم [فنكنس ويك] بنموذج لما يرجون أن تكون عليه جميع الاعمال الادبية ولكن يجب ان ابادر الى توضيح هذه الحقيقة وهى انى لست اروم الاستهانة أو التقليل من قيمة هؤلاء المفسرين الذين اخذوا على عاتقهم حل جميع العقد ومتابعة كل الالغاز الموجودة فى ذلك الكتاب ، واذا ما قدر لفنكنس ويك ان يكون فى متناول الفهم

ـ ولا شك فى اننا عاجزون عن فهمه بغير هذا الجهد ـ فيجب متابعة مثل هذا التمحيص والتدقيق ، وان السادة كامبل وروبنسن [وهما مؤلفان لكتاب واحد من هذا القبيل] قد ادوا خدمة جليلة ، وان كان ثمة ما اشكو منه فهو جيمس جويس صاحب المؤلف الشاذ المشهور « فنكنس ويك » وذلك لانه باختصار صاغ اجزاء كبيرة منه فى عبارات فارغة ولكنها جميلة « جميلة جدا عندما يرتلها صوت ارلندى يشبه بعذوبته صوت المؤلف ـ كم اتمنى لو انه قام بتسجيلها ! » وربما لم يدرك جويس مدى غموض كتابه هذا • ومهما كان الحكم النهائى عن « فنكنس ويك » ـ وهذا ما يخرج عن حدود غرضى هنا ـ فلست اعتقد ان الشعر عادة يكتب بهذه الصورة « ان الكتاب عبارة عن قصيدة نثرية طويلة » أو يحتاج الى مثل هذا التحليل لكى يتم فهمه وتذوقه ولكنى اظن بان لغز فنكنس ويك قد شجع على رواج الخطأ الشائع اليوم ، وهو الخلط بين التفسير والفهم • وبعد اخراج مسرحيتى « حفلة الكوكتيل » استمر البريد يحمل لى مدة ثلاثة أشهر أعدادا هائلة من الرسائل كانت كلها تحتوى على حلول مدهشة لما كان يعتبره اصحابها معنى المسرحية الغامضة • وكان واضحا ان محررى هذه الرسائل لا يستنكرون وضعى لمثل هذه الاحجيه امامهم ، فلقد احبوها ، وفى الواقع انهم قاموا ، دون ان يشعرون ، بخلق هذه الاحجية لكى يتمتعوا باكتشاف الحل لها • وهنا يجب ان اعترف بانه لا يمكن تبرءتى تماما من تهمة التغرير بهم على الاقل فى مناسبة واحدة فقط • اما بشأن الملاحظات التى ذيلت بها « الارض الخراب » فلقد كنت اقصد بها فى بادىء الامر ذكر جميع المصادر التى اقتبست منها استشهاداتى المختلفة للرد على تخرصات نقاد قصائدى الاولى الذين اتهمونى بالسرقة الادبية • وعندما تم طبع « الارض الخراب » بعد ذلك على شكل كتاب صغير [لان القصيدة عندما ظهرت لاول مرة فى مجلة « الدايل » وال « كريتويون » كانت خلوا من التذييل] ، وجدت بان القصيدة كانت قصيرة جدا مما حدا بى الى استئناف العمل من جديد لتوسيع ذلك التذييل واعداد صفحات أكثر من المادة المطبوعة فكانت

النتيجة ان اصبحت تلك الملاحظات هدفا عجيبا للدراسات العلمية الزائفة التى لا تزال مستمرة حتى هذا اليوم • وطالما فكرت فى نبذ هذه الملاحظات الا ان ذلك الامر اصبح عسيرا اليوم فلقـــد كانت تلك الملاحظات موضع اعجاب اكثر من القصيدة ذاتها حتى صـــار الذين يشترون الديوان ولا يجدونها فيه يطالبون بارجاع نقودهم اليهم ، بيد انى لا اعتقد ان هـــذه الملاحظات قد اضرت الشعراء الآخرين • فانا لا استطيع مطلقا ان اتصور وجود احدا بين الشعراء الفحول المعاصرين ممن لا يحسن استعمال عملية التذييل هـذه [اما بخصوص الآنسـة ماريان مور فان ملاحظاتهـا عن قصائدها سديدة دائما كما انها موضع العجب والمتعة ولا تشجع ابدا الباحثين عن مصادر الاشياء على التمادى فى غيهم] فانا اذن لست بنادم على كتابة هذه الملاحظات بسبب المثل السيء الذى ضربته فيها للشعراء الآخرين • ان سبب ندمى يرجع الى كون ملاحظاتى اثارت النوع الخاطىء من الاهتمام بين الباحثين عن المصادر • وكان من العدل طبعـــا ان اشيد بعمل الآنسة (جسى وستن) ولـكننى اسف لانى اطلقت هذا العدد الـكبير من المستطلعين فى صيد الوز البرى للبحث عن أصل لعبة ورق [التاروت[1]] و [الـكأس المقدس[2]] •

وبينما كنت اتأمل هذه المعضلة ، أى محاولة فهم القصيدة عن طريق شرح مصادرها عثرت على مقطوعة ل [س•س•فيك] ظهر لى ان لها بعض الارتباط بهذا الموضوع • ولقد استشهد بهـــذه المقطوعة الاب [فكتور هوايت] فى كتابه [الله واللاشعور] • ولقد ذكرها الاب هوايت فى أثناء شرحه للفرق الاساسى بين طريقة [فرويد] وطريقة [يانك] •

---

(١) لعبة التاروت : هى لعبة ورق كانت شائعة فى ايطاليا فى القرن الرابع عشر ولا يعرف اصل هذه الـكلمة ، كما ان قواعد اللعبة نفسها موضع حدس وتخمين •

(٢) الـكأس المقدس : هى ، كما فى اقاصيص القرون الوسطى ، الاناء الذى شرب المسيح منه أثناء العشاء الاخير والذى أصبح هدف مغامرات الفرسان فى قصص القرون الوسطى حيث كانت تدور المغامرات التى يقوم بها هؤلاء الابطال حول البحث عنه •

« ان من الحقائق المعروفة لدى الجميع [كما يقول يانك] هى انه يمكن النظر الى الحوادث الطبيعية من زاويتين [الميكانيكية] ـ الآلية ـ والحيوية فالنظرة الميكانيكية هى سببية محضة اذ يتم فهم الحادثة من وجهة النظر هذه باعتبار انها وقعت نتيجة لسبب معين ... وبالعكس فان النظرة الحيوية هى فاصلة فى جوهرها . فالحادثة الواحدة من وجهة النظر النشاطية تُبحث من الاثر الذى تحدثه حتى سبب حدوثها باعتبار ان النشاط هو الاساس الجوهرى للتغيرات التى تطرأ على الظواهر » .

ان هذه المقطوعة مأخوذة من المقالة الاولى لكتاب [مساهمة فى علم النفس التحليلى] واريد ان اضيف اليها جملة اخرى لم يذكرها الاب هوايت وهى التى يفتتح بها المؤلف فقرة اخرى : « لا يمكن الاستغناء عن اية وجهة نظر من هاتين الوجهتين فى فهم الظواهر الطبيعية . »

ان هذه العبارة توحى بكثير من المعانى اذ يستطيع المرء ان يشرح اية قصيدة بواسطة التحرى عن عناصرها المكونة والاسباب التى ادت الى نظمها وقد يكون الشرح تحضيرا ضروريا للفهم . ولكن لكى نفهم قصيدة معينة ينبغى ايضا ان نحاول فهم ما يهدف اليه الشاعر ، أو بعبارة أفضل ، ان نحاول فهم مضمونها الكامل .

وربما كان النوع الوحيد من النقد الذى يظهر فيه خطر الاعتماد المفرط على الشروح السببية تماما ، هو دراسات السِّير النقدية لا سيما عندما يكون كاتب السيرة قد ذيل معلوماته عن الحقائق الخارجية بتخمينات نفسية عن تجارب الكاتب الداخلية ولست اريد بهذا ان تبقى شخصية الشاعر الراحل وحياته الخاصة ارضا مقدسة لا يجوز للعالم النفسى ان يطأها اذ يجب ان يكون العالم حرا فى دراسة مثل هذه النواحى كلما دفعه حب الاستطلاع لبحثها طالما كان (الضحية) فى عداد الاموات وكان من المتعذر الاستعانة بقوانين الطعن والقذف لايقاف ذلك العالم النفسانى عند حده . كما انه لا يوجد اى سبب يدعو الى عدم كتابة سير الشعراء . هذا بالاضافة الى ان كاتب سيره اى مؤلف من المؤلفين يجب ان يمتلك قابلية على النقد ،

كما يجب ان يكون ذا ذوق وحكمة ومن المعجبين باعمال ذلك الرجل الذى يروم الكتابة عن سيرته ، وعلى العكس من ذلك ، ان اى ناقد له اهتمام كبير بمؤلفات كاتب ما يجب ان يكون ملماً بسيرة حياته • بيد ان السيرة النقدية لحياة أى كاتب هى ، بحد ذاتها مهمة دقيقة والناقد ، كاتب السيرة الذى يطبق فى موضوعه طرق التحليل النفسى المماثلة للتى تعرف عليها فى مطالعاته لكتب علماء النفس [ان لم يكن عالما نفسانيا مجربا ومدربا] يزيد فى تشويش الموضوع وارباكه •

ان مدى الفائدة التى يجنيها القارىء من المعلومات الخاصة بحياة الشاعر لكى يتفهم شعره ليست بالبساطة التى يتصورها البعض ، فالقارىء هو الذى يجب ان يقررها لنفسه ، وان يُجيب عنها بصورة عامة كلما دعت الضرورة الى ذلك ، لانها قد تكون ذات اهمية عظمى فى حالة شاعر معين ، وليست بذات بال فى حالة شاعر آخر اذ يمكن ان يكون التذوق الشعرى تجربة معقدة تمتزج فيه ألوان مختلفة من الاطمئنان ، وقد تكون ممزوجة بنسب متفاوتة بالنسبة لكل قارىء ، وسأورد مثلا على ذلك [ان من المتفق عليه بصورة عامة هو ان الجزء الاكبر من شعر (ورد سورت) كتب خلال فترة قصيرة من الزمن فهى قصيرة بحد ذاتها وقصيرة بالنسبة لطول حياة ورد سورث ، ولقد قدم طلاب ورد سورث المتباينون تفاسير مختلفة لتبرير ضعف انتاجه المتأخر ، وكتب السير هربرت ريد منذ سنوات مضت عنه وكتابه طريف [رغم اننى اعتقد ان خير تثمين لورد سورث هو كتاب « رداء متنوع الالوان »] يشرح فيه نشوء وازدهار عبقرية ورد سورث بالنسبة للاثر الذى تركته فى نفسه قصته مع [انت قالون] التى اخذت المعلومات عنها فى الظهور آنذاك • ولقد كتب المستر ف•بيتسون مؤخرا كتابا ذا اهمية عظيمة ايضا [يساعد الفصل الخاص فيه عن (الصوتين) على تفهم اسلوب [ورد سورث] • وهو يذكر فى كتابه هذا ان (آنت) ليست لها الاهمية الكبيرة التى يتصورها السير هربرت ريد وان السر الحقيقى هو ان [ورد سورث] كان مشغوفا بحب اخته (دوروثي) وان هذا يفسر لنا بصورة خاصة

المقصود من قصائد (لوسي) كما يفسر زوال الوحى عن [ورد سوث] بعد زواجه • وقد يكون ريد بهذا على حق فان حججه قوية ولـكن المسألة الحقيقية التى ينبغى على كل من يقرأ لورد سورث ان يبت فى مدى اهمية ذلك وهل ان هذه الحقيقة تساعد على فهم قصائد لوسى اكثر من السابق • واذا جاز لى ان اتكلم عن نفسى فسأقول بان معرفة الدوافع التى ادت الى ظهور القصيدة ليست هى بالضرورة عونا على فهمها فقد تؤدى المعلومات الزائدة عن القصيدة الى الحيولة دون الاتصال بها ، فانا لا اشعر باى حاجة الى القاء اى ضوء على قصائد لوسى ، غير الضوء الذى ينبثق منها ولست اقصد بهـذا الـكلام الى انه لا توجـد مناسبة يمكن لهـذه المعلومات أو التخمينات التى قدمها كل من سير هربرت ريد والمستر بيتسن تكون فيها نافعة ، انها مفيدة اذا ما اردنا فهم ورد سورث ولـكنها غير مفيدة مباشرة فى فهمنا لشعره ، او بالاحرى انها ليست مهمة فى فهم الشعر كشعر ، وانى على استعداد للقول بان ثمة اشياء كامنة فى جميع القصائد الخالدة لا يتغير تفسيرها ويجب ان تبقى كذلك مهما كانت معلوماتنا عن الشاعر كاملة وهذه هى الاشياء المهمة جدا فى القصيدة ، فعندما يتم نظم القصيدة يكون شيئا جديدا قد حدث وهذا الشىء هو الذى نقصد اليه بكلمة [الخلق] كما اعتقـــد •

وليس تفسير الشعر بواسطة تفحص مصادره هو النهج الذى تقره مدارس النقد المعاصرة ابدا ، ولـكنه الطريق الذى يحقق رغبات كثير من قراء الشعر التى تقضى بان يفسر لها الشعر بلغة مغايرة ، ان القسم الاعظم من الرسائل التى تردنى من اشخاص مجهولين حول قصائدى تحتوى على مطاليب بخصوص نوع التفسير الذى يتعذر علىّ اعطاءه • وهناك بعض الاتجاهات الاخرى كالتى يمثلها البروفسور [ردتشارد] فى اختيـــاره مسألة تدريس التذوق الشـــعرى على احسن وجه أو عن طريق الدقة اللفظية التى ينادى بها تلميذه اللامع البروفسور [امبسن] ولقد جذب انتباهى مؤخرا نوع من التطور الذى اعتقـد ان منشـأه يكمن فى الطرف

النجريبية التى كان يستخدمها البروفسور ردتشارد والتى هى بحد ذاتها رد فعل سليم ضد تحويل الاذهان من الشعر الى الشاعر وهو ما نجده فى كتاب طبع قبل مدة قصيرة تحت عنوان [تفاسير] ويتألف من سلسلة من مقالات كتبها اثنا عشر ناقدا انكليزيا شابا حللوا فى كل واحدة منها قصيدة من اختيارهم الخاص والطريقة التى اتبعوها هى انهم اخذوا قصيدة من القصائد المشهورة [ان كل قصيدة جرى تحليلها فى هذا الكتاب هى جيدة من نوعها] دون الاشارة الى المؤلف أو اعماله ، فلجأوا الى تحليلها قطعة فقطعة أو بيتا فبيت وقاموا باستخلاص واستخراج كل جزء من معانيها بقدر المستطاع وربما امكن تسمية هذه المدرسة بمدرسة [عاصري الليمون] • ولما كانت القصائد ترجع الى فترة تمتد بين القرن السادس عشر والوقت الحاضر كما تختلف كثيرا الواحدة عن الاخرى ـ يبدأ الكتاب بقصيدة [العنقاء والسلحفاة] لشكسبير وينتهى بـ [برفروك] ، وقصيدة (ييتس) [بين تلاميذ المدارس] ، ولما كان كل واحد من النقاد يتبع طريقة خاصة جاءت النتيجة ممتعة ومربكة قليلا ، ويجب ان نعترف بان دراسة اثنى عشر قصيدة وتحليل كل واحد منها بأناة وصبر هى طريقة متبعة فى قضاء الوقت ، وانا اتصور ان بعض هؤلاء الشعراء [وقد قضوا نحبهم جميعا ما عداي] سيندهش عندما يعلم بما تعنيه قصائدهم ، ولقد اصابتنى قليلا من الدهشة مرة أو مرتين وذلك عندما علمت بان الضباب الذى جاء ذكره فى مطلع [برفورك] قد تغلغل بطريقة ما الى غرفة الاستقبال • بيد ان تحليل [برفروك] لم يكن محاولة للوقوف على المصادر أو الاصول سواء كان فى الادب أو فى الزوايا الغامضة فى حياته بل كانت محاولة للوقوف على المعنى الحقيقى للقصيدة ، سواء كان ذلك المعنى الذى قصدته انا ام لم يكن • ولقد شعرت بالامتنان لذلك ، وكانت هناك عدة مقالات خيل لى بانها جيدة بيد انه لما كان لكل طريقة نواقصها ومخاطرها لذا فان من الانصاف ان اذكر ما يبدو لى من نواقص ومخاطر فى هذه الطريقة ، تلك المخاطر التى ينبغى للاستاذ ان يحذر تلاميذه منها وذلك اذا صح اعتقادى عن الغاية

الرئيسية التى تستخدم فيها الا وهى تمرين الطلاب •

ان الخطر الاول يكمن فى الاعتقاد بضرورة وجود تفسير واحد للقصيدة ، وان ذلك التفسير هو التفسير الصحيح وستكون هناك شروح تفصيلية للقصائد المنظومة فى عصر يختلف عن عصرنا ، كما توجد معلومات عامة واشارات تاريخية ومعاني كلمات معينة استعملت فى وقت معين يمكن التثبت منها ويستطيع الاستاذ ان يتأكد من ضبطها من قبل الطلاب ، ولكن معنى القصيدة العام لا يوفيه أى تفسير معين لانه يتوقف على ما توحيه القصيدة للشعراء المختلفين من ذوى الحس المرهف •

اما الخطر الثانى وهو الذى لم يقع فيه أى ناقد من الذين ساهموا فى الكتاب المذكور كما اظن ، والذى يتعرض له الشعراء عادة ، هو اعتبار التفسير المصيب للقصيدة تعبيرا اراديا أو غير اراديا لما يريده المؤلف بحكم الضرورة ، لان الاتجاه السائد هو اننا نفهم القصيدة عندما نشخص مصادرها ونتتبع العملية التى اخضع الشاعر مواده بها ، وهذا الاتجاه سائد الى درجة اننا يمكننا تصديق العكس بسهولة وهو ان أى تفسير للقصيدة هو تفسير لكيفية كتابتها • وقد افادنى شخصيا التحليل الذى اشرت اليه سابقا لقصيدتى (برفروك) ، وذلك لانه ساعدنى على النظر الى القصيدة من زاوية القارىء ذى الحس المرهف والنشاط العظيم ، ولكن هذا لا يعنى ابدا ان المفسر قد نظر الى القصيدة من زاويتى انا او ان شرحه يمت بأية صلة الى التجارب التى دفعتنى الى كتابتها أو الى أية تجربة صادفتنى أثناء عملية الكتابة •

والتعليق الثالث هو انه يعجبنى ان اطبق هذه الطريقة للاختبار على قصيدة جديدة لم يسبق لى ان رأيتها ، وذلك لاننى ارغب فى اكتشاف ما اذا كنت قادرا على التمتع بها بعد قراءتى للتحليل اذ ان جميع القصائد المذكورة فى الكتاب المشار اليه هى من القصائد التى كنت اعرفها واحبها منذ سنوات عديدة ، وبعد قراءتى للتحليل وجدت ان من الصعب علىّ استرجاع عواطفى السابقة تجاه تلك القصائد فكأنما طلب الىّ اعادة صنع ماكنة فككت

جميع اجزائها ، فانا فى الحقيقة اعتقد ان جزءاً كبيرا من كلمة التفسير يكمن من انه يعود لى شخصيا ، فربما كانت هناك عدة اشياء يمكن معرفتها عن هذه القصيدة أو تلك وهى حقائق متنوعة يستطيع الباحثون اسعافى بها ويمكن ان تساعدنى هى بتجنب سوء فهم محقق ، ولكنى اعتقد ان أى تفسير صائب يجب ان يكون فى نفس الوقت تعبيرا عن شعورى عند قرائته .

ان اعطائى فكرة شاملة عن جميع ضروب النقد الادبى المتبعة عندنا فى الوقت الحاضر ليس جزء من الغرض الذى استهدفه فقد اردت بادىء الامر ان الفت الانظار الى التغير الكلى الذى يطرأ على النقد الادبى والذى يمكن القول انه بدأ بـ (كولرج) ولكنه تقدم بسرعة اعظم خلال الخمسة والعشرين سنة الماضية ، ومما ساعد على زيادة هذه السرعة هو ارتباط العلوم الاجتماعية بالنقد وتدريس الادب [بما فى ذلك الادب المعاصر] فى الكليات والجامعات ولست بآسف على حدوث هذا التحول ، ذلك لانه يبدو لى ان حدوثه اكيد ، ففى عصر الشك ، العصر الذى تملأ فيه العلوم الجديد الناس حيرة واضطرابا ، العصر الذى لا يوجد فيه الا القليل من الحقائق المسلم بها كالاعتقادات العامة والفرضيات ، والبيئة المشتركة لجميع القراء فى هذا العصر ، لاتبقى ناحية صالحة للاستكشاف فيه الا وطرقت ، بيد اننا ربما تسألنا عما يمكن ان نجده بين كل هذه الانواع المتعددة مما يمكن ان يكون مشتركا بين جميع أنواع النقد الادبى . لقد اكدت قبل ثلاثين عاما على الوظيفة الاساسية للنقد الادبى اذ قلت انها [توضيح الاعمال الفنية واصلاح الذوق] وقد يبدو هذا التعبير لنا فى عام ١٩٥٦ مليئا بالمباهات والفخر ولكن ربما استطعت ان اصفه ببساطة أكثر بصورة يمكن تقبلها فى هذا العصر أيضا فأقول ان وظيفة النقد هى [المساعدة على فهم الادب وتذوقه] واريد ان اضيف الى ذلك ما تتضمنه العبارة من وجود وظيفة سلبية للادب الا وهى ما لا يجب تذوقه ، لان الناقد قد يدعى فى مناسبة معينة لاستهجان ما هو من الدرجة الثانية والكشف عن النواحى المزيفة رغم ان هذه الوظيفة هى ثانوية بالنسبة لانتخاب عبارات الاستحسان لما

يستحق الاستحسان ، وينبغى لى التأكيد على نقطة واحدة وهى اننى لا انظر الى تذوق الادب وفهمه ، نظرتى الى فعاليتين متميزتين عن بعضهما ، الاولى عاطفية والثانية فكرية ، ولست اعنى بالفهم التفسير ولو ان تفسير ما يمكن شرحه هو خطوة ضرورية للفهم وسوف اقدم مثلا صغيرا على ذلك فأقول ان تعلم الكلمات غير المألوفة والوقوف على أشكال الكلمات الجديدة هما شرطان اساسيان فى فهم (جوسر) وهذا ما يدخل فى باب التفسير ، بيد ان الانسان قد يصبح ملماً بكل ما يتصل بعصر جوسر وعاداته الاجتماعية وعقائده ومعرفته وجهله ومع ذلك لا يستطيع فهم الشعر ، ففهم القصيدة يعنى تقريبا تذوقها للسبب الصحيح وقد يقال ان ذلك يعنى الحصول على المتعة اللازمة للقصيدة ، كالتى يمكن ان تمدنا بها • فالتمتع بالقصيدة واساءة فهم حقيقتها هو التمتع بما هو مجرد انعكاس لتفكيرنا ، فاللغة اداة عسيرة الاستعمال بحيث ان عبارتى [التمتع] و [الحصول على المتعة من •••] لا يعنيان شيئا واحدا ، حتى ان القول بان احدهم (يحصل على المتعة من الشعر) لا يعني بأنه (يتذوق الشعر) ، وفى الحقيقة ان معنى كلمة (المتعة) نفسها تختلف باختلاف الشىء الذى يوحى بالمتعة فحتى القصائد المختلفة تجلب درجات متفاوتة من الرضى ، ومن المؤكد اننا لا نتذوق القصيدة بصورة تامة ما لم نفهمها ، وبالعكس فمن الصحيح أيضا القول باننا لانفهم أية قصيدة مالم نتذوقها وهذا يعنى تذوقها بالدرجة الصحيحة بالنسبة الى قصائد اخرى • وليس من الضرورى ان نضيف الى ان هذا يعنى بان المرء يجب ان لا يتذوق القصائد الرديئة ما لم تكن ردائتها من النوع الذى يثير ضحكنا ويسلينا •

لقد قلت ان التفسير ربما كان خطوة اولية ضرورية للفهم ولكن يخيل لى بانى افهم بعض انواع الشعر دون تفسير فمثلا قصيدة شكسبير ••

« يرقد والداك تحت خمس قامات كاملة من الماء »

أو قصيدة شيلى :

« هل اصابك الشحوب ••

من جراء تسلق سلم السماء ..

والتطلع الى الارض ... »

وذلك لان هذه القصائد ، وفى كثير من القصائد الاخرى لا يوجد فى نظرى أى شىء يمكن تفسيره ، او بالاحرى لا يوجد ما يمكن ان يساعدنى على فهمها بصورة أحسن وتذوقها على خير وجه ، وكما اشرت سابقا فانه يمكن احيانا ان يشتت التفسير انتباهنا كليا عن القصيدة كشعر بدلا من ان يقودنا فى طريق الفهم وربما كان خير سبب عندى على فهم مثل هذا الشعر ، كالقصائد الغنائية لشكسبير وشيلى التى ذكرتها آنفا هو ان هاتين القصيدتين تمداني اليوم بنفس النشوة العظيمة التى كنت احصل عليها قبل خمسين عاما . تمداني اليوم بنفس النشوة العظيمة التى كنت احصل عليها منهما قبل خمسين عاما .

فالفرق اذاً بين الناقد الادبى وبين الناقد الذى يتعدى حدود النقد الادبى لا يكمن فى كون الناقد الادبى هو اديب صرف او انه خال من الميول الاخرى ، فالناقد الذى لا هم له سوى الادب لا يملك ما يقوله لنا الا القليل اذ ان ادبه سيكون افكارا مجردة خالصة ، ان للشعراء ميول اخرى بالاضافة الى الشعر والا كان شعرهم فارغا ، فهم شعراء لان رغبتهم القوية كائنة فى تحويل تجاربهم وافكارهم الى شعر [والتجربة والتفكير يعنيان ان لهما ميول اخرى خارج نطاق الشعر] وعليه يكون الناقد (اديبا) اذا كان غرضه الاساسى فى كتابة النقد هو مساعدة القراء على الفهم والتذوق . ولكن يجب ان تكون له ميول اخرى تماما كما هى الحال مع الشاعر ، فالناقد الادبى ليس مجرد اختصاصى فنى ، تعلم القواعد التى يجب مراعاتها من قبل الكتاب الذين ينقدهم اذ يجب ان يكون الناقد رجلا كاملا ، رجلا له معتقداته ومبادؤه ومعرفته وتجربته فى الحياة .

اذن يمكننا ان نتساءل حينما يقدم لنا أى مؤلف باسم النقد الادبى ما اذا كان يرمى الى الافهام والتشوق ، فان لم يكن كذلك فقد يكون نوعا من النشاطات الحرة المفيدة ، وعند ذاك يجب ان يتم الحكم عليه باعتباره بحثا فى علم النفس أو الاجتماع أو المنطق أو التربية أو أى موضوع

آخر • ويتم الحكم عليه من قبل الرجال المختصين فى حقل الابحاث لا من قبل رجال الادب • ويجب ان لا نخلط بين كتابة السير وبين النقد ، فالسيرة مفيدة عادة لانها تمدنا بالشروح التى قد تفتح لنا طريق تفهم افضل ولكنها تصرف نظرنا عن الشعر وذلك عن طريق توجيه اهتمامنا نحو الشاعر نفسه ويجب ان لا نخلط بين المعلومات الخاصة بعصر الشاعر واحوال المجتمع الذى عاش فيه والافكار السائدة فى تلك الفترة والمتضمنة فى كتاباته والحالة التى كانت عليها اللغة فى ذلك الوقت ، يجب ان لا نخلط كل هذا بفهم شعره فقد تكون هذه المعلومات كما اشرت الى ذلك سابقا ، تحضير ضرورى لفهم الشعر واكثر من ذلك ان تكون لها قيمتها الخاصة كحقائق تاريخية ، ولكنها لغرض التثمين الشعرى لا تأخذ بنا الا الى الباب وعلينا ان نشق طريقنا بنفسنا الى الداخل فلكى نحصل على تلك المعلومات من وجهة النظر التى اتخذتها فى هذه المقالة ، ليس من الضرورى ان ننتقل بانفسنا الى حقيقة تاريخية بعيدة وان نفكر ونشعر عند قراءتنا للشعر كما فعل معاصرو الشاعر نفسه ، ولو ان مثل هذه التجارب لها قيمتها ، ان الشىء المهم هو طرح القيود التى يفرضها العصر عن انفسنا وتخليص الشاعر الذى نقرأ له من الحدود التى فرضها عليه عصره ، وذلك لغرض الوقوف على التجربة المباشرة ولكى نصبح فى تماس تام مع شعره ، ويمكننا القول ان الغرض الاساسى من قراءتنا لقصيدة من قصائد (سافو) ليس هو ان نستطيع تصور انفسنا فوق جزيرة يونانية قبل ٢٫٥٠٠ عام وانما هو ان تبقى التجربة هى هى بالنسبة للناس الذين يتذوقون الشعر بغض النظر عن العصر الذى عاشوا فيه واللغة التى تكلموها ، انها الشرارة التى تستطيع ان تتطاير عبر ٢٫٥٠٠ سنة ، فالناقد الذى ادين له بالشكر العميق هو الذى يستطيع ان يجعلنى ارى شيئا جديدا لم اره سابقا أو كنت اراه بعيون يعميها التحيز •• انه الناقد الذى يجمع بينى وبين التجربة ثم يتركنى لوحدى معها معتمدا على احساساتى وذكائى وقابليتى فى الحكم •

اننا اذا ما اكدنا فى حقل النقد الادبى على الفهم فقط فاننا عندئذ نكون

فى خطر النظر الى الفهم بانه مجرد (تفسير) كما اننا نكون فى خطر النظر الى النقد وكانه علم من العلوم وهذا شيء لا يصح ان يكون ، وعلى العكس اذا ما بالغنا فى التأكيد على اهمية (التذوق) فاننا سنميل الى الذاتية والانطباعية وعند ذاك فان متعتنا لن تفيدنا شيئا ولن تذيد عن مجرد اللهو والتسلية ، ويبدو لى ان النوع الثانى من النقد (أى الانطباعى) هو الذى سبب لى قبل ٣٣ عاما التبرم الذى شعرت به عندما كتبت عن وظيفة النقد واليوم يبدو لى اننا يجب ان نكون على حذر مما يدخل فى نطاق التفسير ولكن لا اريد ان اتركم وانتم تعتقدون بانى ناقم على النقد فى عصرنا هذا ، فانا اعتقد بان الثلاثين سنة الماضية هى فترة زاهرة فى النقد الادبى فى كل من بريطانيا وامريكا ، ولربما بدت أكثر ازدهارا فى المستقبل .. من يدرى ؟ ..